المحاضرة العاشرة: تأويلية غادامير Hans-Georg Gadamer:(1900-2002)

لقد رأينا أن هدف "دلتاي" تمثل في البحث عن الموضوعية في العلوم الإنسانية. وقد أفرط كثيرا في الدعوة إلى إمكانية تحقيق العلوم الروحية معرفة موضوعية خالصة تقترب فيها من العلم، من خلال اعتمادها على الفهم التأويلي. لكن هذا لم يلْق تأييدا لدى الفلاسفة التأويليين الذين جاءوا بعده. لأنهم لاحظوا مدى الصعوبة المعقّدة في دراسة الظاهرة الإنسانية من خلال منهج موغل في الذاتية. لذلك وجد "وهيدجر" طريقا آخر لدراسة الإنسان من خلال خبرته الوجودية. وعلى ذلك لم يعد مطلوبا من التأويل أن يبلغ معرفة على درجة عالية من الموضوعية، وإنما أن يتخذ لنفسه طريقا تمكّنه من تحقيق معرفة ملائمة تعمّقُ فهمنا للوجود. وهنا تبرز وظيفة التأويل عند "هيدجر" ثم تلميذه "غادامير".

الحقيقة أنه مع "هيدجر" سيرتبط التأويل ارتباطا وثيقا بالفلسفة، خاصة "الفينومينولوجيا"، لأنه لما كان هدف الفلسفة هو فهم الوجود، والفهم أساس الفلسفة وجوهر الوجود، فإن الهيرمينوطيقا ليست سوى "كشف فينومينولوجي" للوجود. وتحديدا الوجود الإنساني. ومن ثم ينبغي الكفّ عن النظر إليها باعتبارها منهجا أساسيا للعلوم الإنسانية، أو مجرّد تأويل للنصوص. و"إن كل أنطولوجيا، وإن توفرت على نسق من المقولات مهما كان ثريا وثابط الترابط، إنما تبقى في أساسها عمياء وتبقى انحرافا عن مقصدها الأخص، إذا هي لم تُوضح قبلا معنى الكينونة كفاية ولم تتصوّر هذا الإيضاح بوصفه مهمتها الأساسية". لقد انحرفت الفلسفة بعد أفلاطون عن مسارها الطبيعي الصحيح، حيث أهملت البحث عن معنى الوجود وحقيقته وفهمه. وأخذت تبحث عن فهم الموجود، بينما كان عليها البحث عن الوجود نفسه. إن البحث والتفكير الدائمين حول الموجود أدّى إلى الغفلة عن البحث عن الوجود نفسه، وعدم الفصل بين الوجود والموجود من عوامل سوء الفهم. يقول "هيدجر":" ... والواقع أن الميتافيزيقا لم تجب أبدا عن السؤال المتعلق بحقيقة الوجود، لأنّها لم تسأل أبدا هذا السؤال. و الميتافيزيقا لم تسأل هذا السؤال، لأنها لا تفكّر في الوجود إلا عن طريق امتثال الموجود بما هو موجود، فهي تعني الموجود في مجموعة وتتحدّث عن الوجود. تُسمّي الوجود و تعني الموجود بما هو موجود". وجميع قضايا الميتافيزيقا من أوّلها إلى آخرها حافلة بهذا النوع من الخلط الكبير الذي هو خطأ مقصود، وليس نتيجة إهمال في التفكير أو سوء في التعبير، لذلك فالميتافيزيقا – بسبب النحو الذي تفكّر بمقتضاه في الموجود و الذي لم تدركه- هي الحاجز الذي يحُول بين الإنسان وعلاقة الوجود بماهية الإنسان في علاقته الأولى". بل حتى التصور الذي نحمله عن الفلسفة الحديثة هو خاطئ. لأننا نقدّمها دائما و في أغلب مناسباتنا على أنّها مجرد نظرية للمعرفة و ليست ميتافيزيقا طالما أنها لا تهتم بالكائن، بينما الصواب أنها في الأساس ميتافيزيقا، لان السؤال المُوجّه لها يبقى هو سؤال عن الكائن، رغم أنها لا تطرحه بكيفية مباشرة وصريحة. إذن فالفهم التأويلي ليس عملية موضوعية، بل هو عملية ذاتية تبدأ من الذات التي لها بناؤها التأويلي الخاص وتنتهي إلى الوجود لوصفه، والكشف عن الأسس التي يقوم عليها. لذلك كانت عملية التأويل عند "هيدجر" تنطلق من الفكرة المحورية عن "الدازاين".

الدازاين هو نمط كينونة الكائن الذي هو كل منا نحن أنفسنا في كل مرّة، باعتباره الكينونة التي علينا أن نَكُونَها، والتي ليست معطى أو ماهية جامدة". يقول هيدجر:" من أجل أن نشير في الوقت نفسه وبعبارة واحدة، إلى علاقة الكينونة بماهية الإنسان و الصلة الجوهرية التي للإنسان مع انفتاح(هناك) الكينونة بما هي كذلك، اخترنا للميدان الجوهري حيث يقف الإنسان بما هو إنسان، مصطلح Dasein". و يصل هيدجر إلى أن مفهوم "الدزاين" لا يعبّر عن معنى أننا "بشر" أو "أشخاص"، وإنّما يُعبّر عن مدى قدرتنا على أن نصبح ما نحن. أي أن نصير ما هو مستطاع فينا على نحو أصلي. الكينونة إذن مهمّة علينا الإضطلاع بها دون أن نراها. وليس وجود "الدزاين" وجودا مكتملا و نهائيا، إنما هو في حالة صيرورة وتغير دائمين. وعملية الفهم التلقائي لوجوده الخاص السابق على مرحلة التفسير هي عملية وجودية متغيرة. هي جزء من وجود الإنسان ومن مقوماته ، هي نحو من وجود كل وجود إنساني. وكل وجود إنساني متعلق ومرتبط بزمان ، هو وجود في العالم. أي في دنياه الخاصة بعلاقاتها الفردية والاجتماعية. و"الدزاين" يعيش في هذا العالم، مُحَاصر بهذه العلاقات، أو بـ "الهُم" الذي هو بمثابة "الشخصية العمومية" التي لا توقيع لها، ويصبح الإنسان نفسه إذا تحرر فعلا من الهُم الذي يقع تحت سطوته.

لم تعد الهرمنيوطيقا إذن منهجا لتكوين معرفة موضوعية. وإنما أضحت منهجا لتعميق الوجود الإنساني والوصول به إلى مستوى أفضل. و أضحت الوظيفة الأساسية للفهم التأويلي هي وصف الوجود من أجل الكشف عن هذه التاريخية التي تكبّل الوجود. فالفهم هنا ليس وسيلة منهجية بقدر ما هو وسيلة وجودية. فهل كانت هذه هي نظرة غادامير؟

الحقيقة أن "غادامير" لم يُعر أي اهتمام لـ "هرمينوطيقا تاريخ الميتافيزيقا" التي يتحدث عنها أستاذه "هيدجر"، بل على العكس من ذلك يضعها موضع سؤال وتشكيك. ويصرّح بأن مشروع "هيدجر" في كتابه "الوجود و الزمان" لا ينجو أبدا من إشكالية التأمل المتعالي. بل النظرة القائلة إن المعنى الكلي للوجود و الموضوعية يمكن عقلنته، و إقامة الدليل عليه انطلاقا من زمانية وتاريخية الدازاين، كان يمكن أن يقول بها هوسرل و بطريقته الخاصة. وإن كان الفرق واضحا بين الفيلسوفين: فإذا كان نقد "هوسرل" للنزعة الموضوعية في الفلسفات السابقة توسيعا منهاجيا للإتجاهات الحديثة، فإن "هيدجر" يعود إلى بداية الفلسفة الغربية قصد إحياء مجادلة يونانية تم نسيانها طويلا وتدور حول "الوجود". ومن ثم كان واضحا أن "المشروع الهيدجري" الذي يروم إلى تأسيس أنطولوجيا أساسية أن يضع مشكلة التاريخ في مقدمة أولوياته. يقول غادامير:" إن إثارة هيدجر لسؤال الوجود، لكي يقلب بذلك اتجاه الميتافيزيقا الغربية بأكمله، لا تجعل من "دلتاي "سلفه الحقيقي، ولا حتى هوسيرل،إنما هو نتشه. ربما لم يدرك هيدجر هذه الحقيقة إلا لاحقا، ولكن حين ندقق النظر نجد أن الأهداف كان قد تضمنها كتاب الوجود و الزمان إنما كانت لغرض رفع النقد الجذري الذي وجّهه نتشة لـ"الأفلاطونية" إلى مستوى التراث الذي ينتقده هو، ولغرض مواجهة الميتافيزيقا الغربية في مستواها، و لغرض إدراك بأن البحث المتعالي هو نتيجة للذاتية المتعالية وللتغلب عليه بذلك". وفي حديث "غادامير" عن المنعرج الأنطولوجي للهرمينوطيقا، فإنه لم يقصد المعنى الذي قصده "هيدجر" في مقدمة "الكينونة و الزمان"، أي ما معنى الكائن؟ لأن الكائن الذي

يمكن فهمه حقا هو في النهاية لغة، و ليس الإبانة عن معنى الكينونة من خلال "الدازاين". لذلك لم ينشغل "غادامير أبدا بمشكلة "الدازاين"، بل على العكس من ذلك رأى أن في صيغ الكينونة و الزمان وتعابيره مجرد محاولة فاشلة للتقريب بين "هوسرل" ومعجمية الفلسفة الترنسندنتالية.

يُعدّ كتاب "الحقيقة و المنهج" أحد أهم مؤلفات "غادامير" التي تعبّر عن موقفه الهرمينوطيقي المتميز، و الذي حاول من خلاله أن يعيد النظر في مسألة الحقيقة. ويتجاوز النموذج الإبستيمولوجي الذي درجت عليه الفلسفات الهرمينوطيقية التي سبقته. وتحديدا "فلسفة شلاير ماخر" و"فلسفة دلتاي". يُلاحظ غادامير أن نقد دلتاي لإيمان "هيجل" بالعقل لا قيمة له، طالما أنه يقترب من هيجل حينما يتحدث عن الروح والحياة، وإننا مدينون لدلتاي بمعرفتنا لكتابات هيجل "اللاهوتية" المبكرة يقول غادامير. صحيح أن دلتاي يصرّح أنه لا بد من أن نبدأ من واقع الحياة، ونفهمها ونعرضها في مفاهيم مناسبة، بعيدا عن كل بناء مثالي، لكن ذلك ليس سوى توسيع لمفهوم الروح الموضوعي ليضم الفن و الدين و الفلسفة. وذلك يعني أن "دلتاي" لا يعدّ الفن و الدين و الفلسفة حقيقة مباشرة، وإنما أشكال من خلالها تعبر الحياة عن نفسها. وأبعد من ذلك فإن ما قام به دلتاي في مسألة دفاعه عن استقلالية مناهج العلوم الإنسانية، و البحث عن أدلة مناسبة لتأكيدها أساسها الإحتكام إلى موضوعها، شبيه إلى حد كبير بنزعة أرسطية مفيدة، ويدلّ ذلك على انفصال حقيقي عن النموذج العلمي. و يرى غادامير أنه لا بد من القول إن دلتاي، في محاولته المنطقية، لم يحقق في الحقيقة تقدّما يتجاوز ما قدمه هلمهولتز من عروض بسيطة".

لذلك فإن "هرمنيوطيقية جادامر" لا تسعى مثل "هرمنيوطيقية دلتاي" إلى البحث عن منهج للإنسانيات. لكنها تحاول فهم العلوم الإنسانية على حقيقتها بصرف النظر عن المنهج. إن عملية الفهم في الإنسانيات وفي العلوم الطبيعية أيضاً ، عملية تتجاوز إطار المنهج. إذ المنهج لا ينتج في النهاية إلا ما يبحث عنه. أو لا يجيب إلا على الأسئلة التي يطرحها. إن أي منهج يتضمن إجاباته، ولا يوصلنا إلى شيء جديد . هرمنيوطيقية جادامر إذن تتجاوز إطار المنهج لتحليل عملية الفهم نفسها. وهنا كان على غادامير أن يدعو إلى التميز بشكل واضح بين الحقيقة التي يتضمنها الفهم، وتقنيات البحث ومناهجه، والقواعد والقوانين التي تعصمنا من سوء الفهم، الذي نكون أقرب إلى الوقوع فيه على حد تعبير "شلاير ماخر" في ما يتعلق بالعلوم الإنسانية. ولا يسعى "جادامر" إلى رفض العلم، ولا رفض الموضوعية العلمية. ولكنه يؤكد على أن طريق المنهج العلمي الصارم في موضوعيته ليس هو الطريق الوحيد لكشف الحقيقة. وعليه لا توجد بالضرورة علاقة بين المنهج بقواعده الصارمة وبين الحقيقة. و ينتج عن ذلك أن عدم الاعتماد على قواعد المنهج العلمي لا تعني عدم القدرة على التوصل إلى الحقيقة. خاصة عندما يتعلق الأمر بطبيعة الوجود الإنساني، أو الحياة. فالمنهج لا يكشف حقيقة هذا الوجود بقدر ما يخلق هوة بين الذات والموضوع.

لقد شعر غادامير منذ البداية بأهمية تناول مسألة " الفهم "على نحو مغاير للطريقة التي كانت تتبعها التأويلية التقليدية سواء عند شلايرماخر أو دلتاي. حتى إن هدف الهرمنيوطيقا عنده أصبح هو البحث عن خبرة الحقيقة التي تتجاوز المنهج العلمي أينما وجدت. لأن الفهم هو الطابع الأصلي

لوجود الحياة ذاتها. وإذا نجح الفهم في معرفة الخصائص العامة للخبرة العالمية، فإنه قادر على التوصل إلى معرفة لها طابع العمومية. وهي معرفة مهمة في حياتنا المعاصرة المثقلة بالمشكلات، والتي غلب عليها الطابع العقلاني والتكنولوجي. مع العلم أن الهرمنيوطيقا لا تعارض العقل، ولكنها تبحث عن نوع جديد من العقل يخالف العقل التكنولوجي والميكانيكي، الذي ساد الحضارة الغربية منذ فلاسفة العصر الحديث. وعلى ذلك سنلاحظ أن هيرمينوطيقا غادامير لا تختص بفهم النص، أو بفهم العلوم الإنسانية، بل تشمل الأعمال الفنية، وفلسفة الفهم التاريخي، وجميع أفعال الإنسان وأعماله. لأنها تهتم بالبحث عن حقيقة الفهم بصورة عامة، وتدرس الشروط الوجودية لحصوله والعوامل المؤثرة فيه والهدف من تفسير النص، وإمكان القراءات المتعددة للنص الواحد وغيرها من المسائل. و"عندما أمارس الفهم فإن ذلك لا يعني أن أجد نفسي في مواجهة معنى معين، ولكنه يعني أيضا أن أتلمس كائنا، وأن أسكنه بمعنى من المعاني، أو أن يسكنني هو. أي أنه عندما يتيسّر لي فهم قصيدة معينة بحيث يهزني ما فيها، فإن معنى ذلك أنني أشارك في خلق حقيقة ما، تساعدني على تحسين رؤيتي لذاتي و لمحيطي في نفس الوقت". يقول غادامير:" و لئن جعلنا الفهمَ موضوعا لتفكيرنا، فليس المرمى من وراء ذلك هو فن الفهم أو تقنية الفهم، مثلما أرادت أن تكون التأويلية اللغوية التقليدية و التأويلية اللاهوتية. فمثل هذا الفن أو التقنية ستخفف في إدراك أن التقنية الشكلية، في نظر الحقيقة التي تتحدث إلينا من التراث، تنتحل لنفسها تفوقا زائفا. ومع ذلك سأوضح فيما يلي كم يؤثر حدث ما في الفهم كلّه، وكم هو ضئيل التأثير الذي يمارسه الوعي التاريخي الحديث لإضعاف التراثات التي نخضع لها، إذ ليس من اهتمامي أن أضع قواعد للعلوم أو لصروف الحياة، بل أن أسعى إلى تصحيح التفكير الزائف في ماهيتها".